

## وحدة الإنسانية في حياة الرسول

أود أن نقوم معاً برحلة عبر التاريخ إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، لئرى الطلاب الذين جاءوا إلى جامعته ، أو تتلمذوا على هديها ، ونحاول أن نحللهم عنصرياً واجتماعياً ، ثم ننظر بعد هذا إلى جوانب الحياة التي برزوا فيها ، وقدموا خدماتهم إلى الإنسانية عن طريقها ، ثم نربط بين هذا كله وبين حياة الرسول ، وهي كانت - بطبيعتها - ختام النبوات ، ومنطلق العقل الإنساني إلى حمل مسئولياته من أجل حياة أفضل .

### ١ - باقة إنسانية

طلاب هذه الجامعة الإسلامية على عهد الرسول لم يكونوا من قبيلة واحدة ، ولا من عنصر واحد ، ولناخذ نماذج لذلك :

من قريش كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة الزبير .

ومن تهامة - على ساحل البحر الأحمر - كان أبو ذر وأنيس من غفار .

ومن اليمن أقبل أبو هريرة وطفيل الدوسي ، كما جاء أبو موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل .

ومن البحرين على الخليج العربي جاء منقذ بن حبان ، ومنذر بن عائد ، من قبيلة عبد القيس .

وهذا فروة بن عامر من معان ببلاد الشام .

كل الجزيرة العربية كانت ممثلة في هذه الجامعة النبوية . . . مكة أم القرى وما حولها في اليمن وتهامة والخليج العربي والشام . ولكن الدائرة كانت أوسع .

فهذا بلال من الحبشة ، وهذا صهيب الرومي ، وهذا سلمان الفارسي ، وهذا فيروز الديلمي .

والرسائل التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وحكام الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية في مصر والشام وفارس والحبشة . . كانت تستهدف توسيع هذه الدائرة . فالرسالة من أول أمرها عالمية ، وهي مفتوحة للجميع ، دون أية تفرقة عنصرية أو عصبية إقليمية : « وما أَرْسَلْنَاكَ

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » [ الأنبياء : ١٠٧ ] .

## ٢ - تحليل اجتماعي

وكان الإيمان هو الرباط الأكبر الذي يجمع بين هؤلاء جميعاً . وبه استطاعوا أن يروا جوهر الإنسان ، الذي كرمه الله ، رؤية ترفع مكان الإنسان فلا يصبح مجالاً يستغله إنسان آخر اقتصادياً أو اجتماعياً .

وكان في هذا المجتمع الأغنياء كأي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وكان فيه رؤساء أقوامهم مثل فروة عظيم معان ، وذى الكلاع رئيس حمير .

وكان فيه الفقراء والمستضعفون كبلال ويامر وصهيب وخباب .  
وكان فيه المستضعفات كسمية وليينة وزينرة .

ودعا الإسلام الأغنياء إلى البذل : « وسارعوا إلى مغفرةٍ  
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ \*  
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ . وَالْعَافِينَ  
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [آل عمران : ١٣٣-١٣٤] .  
وربط بين عذاب الله وحرمان الفقير حقه في المال ، فقال في وصف  
أهل النار يوم القيامة : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟ \* قَالُوا : لَمْ نَكُ  
مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ \* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ  
الْعَاطِيَةِ » [المدثر ٤٢ - ٤٥] .

كان التكافل الاجتماعي قاعدة لتربطهم ، يأتون إلى المجتمع  
الإسلامي ، أغنياء أو فقراء ، ولكن عليهم أن يطرحوا وراءهم شح  
الأنفس ، والتكائر بالأموال ، ويعيشوا إخوة متحابين عاملين متتجين .

### ٣ - تنمية شاملة

ويدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العمل ، في كل مجالات  
الحياة :

١ - لقد استردوا أرضهم التي اغتصبها منهم يهود بني قينقاع وبني النضير

وبنى قريظة ، وأعاد الرسول توزيعها على فقراء المدينة من المهاجرين والأنصار . ووضع نظاماً دقيقاً لتوزيع المياه بين الذين يسكنون عوالم المدينة ، والذين يسكنون سافلتها في الشمال والغرب .

٢ - وارتبط باسترداد الأرض السيطرة على المواقع الحاكمة التي كانت في أيدي اليهود ، واستطاعوا بها من قبل أن يهددوا قاعدة الإسلام في المدينة ، واتخذوها مراكز للتآمر وفتح الثغرات أمام أعداء الإسلام .

٣ - ووضع الرسول تخطيطاً دقيقاً لغزواته ، يستهدف أولاً قطع طريق التجارة الساحلي على قريش ، فلما سيطر عليه قطع عليهم طريق نجد الداخلي . وعقد سلسلة من المحالفات مع القبائل على طريق التجارة ، واستطاع بهذا أن يؤثر تأثيراً عميقاً على الموارد الاقتصادية لقاعدة المقاومة في مكة ، وعندما اجتمعوا عليه جميعاً في غزوة الأحزاب ، استخدم سلاح الحرب النفسية للإيقاع بين أعدائه ، ثم عقد صلح الحديبية مع قريش ، ليفرغ في العام التالي لتصفية الجيوب اليهودية في الجهة الشمالية : في خيبر وفدك وتيما ووادى القرى ، وليعود بعد هذا إلى فتح مكة في العام الثامن بعد الهجرة .

٤ - هذا بينما كان حريصاً أشد الحرص على سلامة الجهة الداخلية ، يحل المشكلات التي تنجم بين قبائل الأنصار ، ثم بين المهاجرين والأنصار ، قاضياً على مؤامرات المنافقين ، سالكاً سبيل التلطف أحياناً ، والشدة أحياناً ، جامعاً قلوب أصحابه حول الهدف الكبير .

٥ - وعندما احتاج المسلمون إلى خبرات علمية في آلات الحصار ، ومهاجمة الحصون ، كان من أبناء المسلمين من يذهب إلى جرّش

— وهي بلدة في الأردن الحالية — ليتعلموا فيها هذه الخبرات ، التي أثبت التطور العسكري وقتئذ حاجة المسلمين إليها . فالبعثات العلمية وتطوير وسائل الحرب كانت قاعدة متبعة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٦ — وكما كان التطوير في الأساليب والمعدات ، كان هناك تدعيم لحجم القوات المحاربة ، وللأساس الاقتصادي الذي يمد الجيش بما يحتاج إليه . وبهذا تكاملت القوى المادية والمعنوية والعلمية للارتفاع بفاعلية الجيش المحارب .

فالتنمية في قاعدة الإسلام بالمدينة كانت شاملة : كانوا يحاربون ويتتجون ، يفكرون ، ويعملون ، ويخططون وينفذون ، في ترابط مؤمن بين القيادة والقاعدة ، وإحساس عميق بفضل الله عليهم أن هداهم للإيمان ، وألف بين قلوبهم ، وهداهم سبيل الرشاد .

#### ٤ — خاتم المرسلين

كانوا يعملون مع رسول قال فيه ربه : «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» [الأحزاب : ٢١] ووصفه بقوله :  
«وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم : ٤] وعلمه كيف يدعوهم مستزيدين من العلم : «وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» [طه : ١١٤]

وننظر إلى حياته فراها - كما رأينا حياة مجتمعه - شاملة ما قاسى من أعدائه ، وما بذل من جهد صابر كريم ، وما قام به من عمل . في كل مجالات الحياة :

١- وكما وقف المسيح عليه السلام يلقى عظته على جبل الزيتون مبشراً بالخير والمحبة ، وقف الرسول صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا يدعو الناس إلى الإيمان : « إن الرائد لا يكذب أهله .. والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تسيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون » .

وتتابعت بعد هذا خطبه وعظاته حتى وقف بآلاف المؤمنين في حجة الوداع على جبل عرفات يدعو الناس إلى احترام الإنسان : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، لى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا » .

٢- وكما خرج موسى مهاجراً مع قومه ، خرج الرسول مهاجراً مع صاحبه الأمين . وآوى إلى الإيمان والغار ، وأقدام أعدائه على فم الغار ، وصوت الحق يردد : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ

الذين كفروا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [التوبة : ٤٠] .

٣- وكما عاش داود مرتلاً المزامير متعبداً إلى ربه بها ، نسمع قول

الله مخاطباً رسوله : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ • قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا • نِصْفَهُ  
أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا • أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . »  
[المزمل : ١ - ٤] .

٤ - وكما صبر أيوب على بلاء الله في فقد الأهل والمال والولد .  
صبر الرسول هو وأصحابه عندما حاصرتهم قريش في شعب بنى هاشم .  
ثلاث سنوات ، لا يجدون من القوت إلا التزر اليسير ، حتى جفت أئداء  
النساء ، وتعالّت أصوات الرضع والصبية من الجوع والحرقان ، وكانوا  
يأكلون ورق الأشجار حتى تقرحت شفاههم .

٥ - وكما خطط يوسف لموارد مصر وادخارها واستهلاكها ، وضع  
الرسول تخطيط مجتمع شامل ، لم يقتصر على جوانب التكوين وحدها ، وإنما  
امتد إلى كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية  
على الصعيد الداخلى والخارجى .

ونستطيع أن نتبع جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنرى  
فيها تلخيصاً لحبوات النبوات السابقة ، ثم اطمئناناً إلى حكم العقل  
الإنسانى وتحكيمه ، إذا ما سلم من الهوى . وفى هذا يقول الله :

« قُلْ : إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ ، أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفُرَادَىٰ .  
ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ  
لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » [سبأ : ٤٦] .

## ٥ - محاور رئيسية

ومع القضايا الشاملة التي تمثلت في مجتمع المدينة وفي حياة الرسول ، كنا نجد محاور رئيسية تدور حولها هذه القضايا . وأكتفى منها بمحور واحد هو : تحرير مكة من سيطرة قريش وتحرير المدينة من سيطرة اليهود .

ولقد استطاع الرسول تحرير المدينتين ، وعندما دخل المسلمون مكة كان هذا هو الفتح المبين الذي وعدهم الله إياه .

لقد عادوا بعد أن أخرجتهم قريش ، وصادرت أموالهم وديارهم . عادوا ليرتفع صوت الأذان فوق الكعبة وليطوفوا حولها آمنين .

ونحن الآن قد أخرجنا أعداؤنا من بيت المقدس وأرضنا العربية السليبية ، أخرجونا من مساجدنا وحقولنا ومصانعنا وقرانا وأرضنا . وتماهى التأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة المصيرية من حياتنا أن تركز أنظارنا على بيت المقدس والأرض السليبية .

فلنعمل كما عمل الرسول : تنمية شاملة في المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلميا ، ولتكن عيوننا في الوقت نفسه على مقدساتنا وأرضنا ليكون لنا فتح قريب .

إن العودة إلى بيت المقدس والأرض السليبية هي امتداد لعودة الإسلام والمهاجرين إلى مكة . . . وعودة السلام إلى أرض السلام .

إن كل جهد يبذل في هذه السبيل عسكري واقتصادي ، مادي ومعنوي هو خطوة مؤمنة على طريق النصر ، الذي نصنعه ليسعد به الجميع .

وتحية إلى كل جندي في الجبهة ، وكل عامل في موقع من مواقع الإنتاج ، وكل فدائي لا تطلع على جهده إلا عين الله ، وكل شهيد لقي ربه : وسامه من دم على صدره : وجزاؤه عند رب لا تضيع عنده الودائع .